المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة:2019 Issn: 2335- 1470

الفلسفة باعتبارها تحديا للنزعة الوضعية في العلوم الإنسانية

Philosophy as a challenge to positivism in the humanities

د.الحاج رباني
أستاذ محاضر أ، جامعة معسكر، فلسفة
elhadj.rebani@univ-mascara.dz

تاريخ الإرسال: 29/ 12 / 2018 ، تاريخ القبول: 2019/01/04، تاريخ النشر:2019/01/12

الملخص:

نتساءل عن إمكانية تجاوز السؤال الفلسفي في الوقت الذي نرى فيه إقتحام هذا السؤال للمجال العلمي في تطبيقاته المختلفة، فمباحث البيوإتيقا وما تطرحه من تحديات للقيم الأخلاقية والإنسانية والدينية، تستدعي تفكيرا فلسفيا نقديا في المقام الأول، لأن الفلسفة باعتبارها تفكيرا عقليا في مشكلات الحياة الإنسانية، هي الوحيدة القادرة على نشر فهم موضوعي يتجاوز كل التبريرات والحجج ذات الطابع الإيديولوجي، إذا كان هذا بخصوص المجالات العلمية البيولوجية والطبية، فما بالك بالعلوم الإنسانية التي انبثقت من صميم الفكر الفلسفي منذ بداياته الأولى، بل قدمت الفلسفة باعتبارها منهجا ورؤية سندا قويا لنشأة هذه العلوم في الفترة الحديثة والمعاصرة بل كان روادها الكبار فلاسفة بالدرجة الأولى من كونت إلى دوركايم وفيبر وماركس وبورديو وغيرهم. هذا ما نريد مناقشته في هذه الورقة البحثية.

الكلمات المفتاحية:

الفلسفة؛ الوضعية؛ العلم؛ العلوم الإنسانية.

Abstract :

We ask the question of the possibility of overcoming the philosophical question at a time when we see the penetration of this question to the scientific field in its various applications. Biocetics and the challenges it presents to ethical, human and religious values call for critical philosophical thinking in the first place because philosophy as a mental reflection on the problems of human life is The only one capable of disseminating an objective understanding that goes beyond all the justifications and arguments of an ideological nature, if this is in the fields of biological and medical sciences, let alone the human sciences that emerged from the very core of philosophical thought from its earliest beginnings, Barha approach and the vision of a strong supporter of the genesis of science in the modern and contemporary period, but the adult patrons philosophers primarily formed to Durkheim and Weber and Marx, Bourdieu and others. This is what we want to discuss in this paper.

Key words: Philosophy; Position; Science; Human Sciences.

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة:2019 Issn: 2335- 1470

تقديم:

أرادت العلوم الإنسانية أن تسير على خطى العلوم الطبيعية في معالجتها لمختلف جوانب الحياة الإنسانية، النفسية والاجتماعية والأخلاقية والسياسية، ويدخل ذلك في سياق الخروج من مرحلة الضعف والقصور التي عانى منها الإنسان في ظل سيطرت نزعات فكرية لاهوتية وميتافيزيقية تنظر إلى الحياة الإنسانية كثمن يجب دفعه بسبب الخروج عن القوانين والسنن الإلهية، وهو ما يعني أن الإنسان عاجز عن فهم وتفسير وجوده.

أما النظام المعرفي الجديد الذي يرى في العلم أساسا له، فإنه يتبنى رؤية مغايرة تماما لهذه الرؤية السحرية للعالم والأشياء بتعبير عالم الإجتماع الألماني ماكس فيبر max weber، رفع السحر عن العالم هو المهمة الأولى التي ينجزها العلم الحديث في مجال الطبيعة الفيزيائية والطبيعة البشرية معا، إذ يمكننا فهم الإنسان انطلاقا من تطبيق قوانين العلم ومناهجه على سلوكاته وعلى ما ينتجه من ظواهر، لذلك يجب أن نتخلى عن النظرة اللاهوتية والميتافيزيقية إذا أردنا أن نفهم الوجود البشري فهما عقلانيا موضوعيا والخروج من الذاتية المستمدة من نرجسية وذاتية الإله المتعالية.

لكن هذا التحول من ذاتية متعالية إلى أنطولوجيا تاريخية أفرز للإنسان مشكلات تتجاوز المشكلات التي صب عليها العلم اهتمامه، وهي مشكلات المعنى والخير والشر والعدالة والحق والسعادة والحرية والاعتراف، إنها تتجاوز نطاق إبستمولوجيا العلم، برغبته في التخلص من الميتافيزيقا، أراد أن يتخلص من العقل المجرد في صورته الفلسفية، لكن الواقع البشري اليوم يؤكد أن السؤال الفلسفي بحمولته الأنطولوجية لا زال حضوره ضروريا في ظل تعذر إحاطة العلم بجميع جوانب الوجود الإنساني؟

-العلاقة بين الفلسفة والعلم:

علاقة الفلسفة بالعلم ليست جديدة، إنها تمتد إلى البدايات أو المحاولات الأولى لتفسير الكون، فالفلاسفة الطبيعيون في تاريخ الفلسفة كانت هواجسهم علمية مرتبطة بالطبيعة من خلال عناصرها

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة:2019 Issn: 2335- 1470

متمثلة في الماء والهواء والنار والتراب، ومرتبطة بالرياضيات في شكلها الحسابي والهندسي، وبالمنطق الذي يفرض على العقل قوانين صارمة ومفاهيم دقيقة صرامة قوانين ومناهج العلم الحديث، بل حتى العصر الحديث عرف فلاسفة كبار كانوا على صلة مباشرة بالعلم الفيزيائي والرياضي أمثال ديكارت (1596-1650) وكانط (1724-1804م) وغيرهم، إلا أن تطور العلم التجريبي الذي بلغ قوته في القرن 19م، أنتج نزعات فكرية تبنت العلم في صورته الوضعية التي اتجهت إلى فصل العلم بشكل كامل عن بقية أنساق المعرفة غير العلمية التي تمثل ماضي التطور البشري.

وبينما كان بعض الفلاسفة في الربط بين الفلسفة والعلم إنقاذا لها، تصور البعض الآخر أن إدماج الفلسفة في نسق العلم سيقضي عليها أو على أهم ما فيها على أقل تقدير.

وهكذا بدأت الفلسفة تبحث لها عن طريق يجعلها تحافظ على أصالتها وفرادتها في ظل تصاعد تيارات العلم الوضعي التي ترى في السؤال الفلسفي، سؤال الماهية والجوهر والكينونة والقصد والغاية النهائية من الوجود البشري كسؤال، أنطولوجي وأخلاقي، سؤالا من دون معنى فارغ من أي مضمون حقيقي بالمفهوم العلمي الدقيق.

يرفع هذا الاتجاه نحو السؤال القديم الجديد الذي ظل يلاحق الفلسفة والفلاسفة إلى اليوم، إنه سؤال الجدوى؟ يصلح الخباز لعجين الخبز والحطاب لجمع الحطب والطبيب للمعالجة وعامل المرآب لتصليح عطب السيارة. لكن لأي شيء يصلح الفيلسوف؟ على المفكر وهو مهتم بتبرير وجوده أن يجيب على سؤال "لأي شيء تصلح الفلسفة"؟[1]

-أصالة الفلسفة:

الفلسفة بما تطرحه من أسئلة وحدها من تتلقى مثل هذا السؤال الذي يتعلق بوجودها، إذ لا يطرح العلم على نفسه هذا السؤال ولا حتى الدين أو الأدب والفن والموسيقى والشعر، مما يجعلنا نقول أن الفلسفة هي السؤال عن الأصل، أصل الأشياء، فمن حيث إشتغالها على الأصل في الأشياء تأبى

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة:2019 Issn: 2335- 1470

الفلسفة أن تقف عند حدود المنطق العلمي الذي أرست قواعده مناهج ونظريات العلم الحديث وهي من دون هذا تفقد خصوصيتها واستقلاليتها، وهو ما يجعل السؤال معكوسا، ما الجدوى من معرفة لا تجيب عن أسئلة ظلت ولا زالت تشكل هما للإنسان في بحثه عن الحقيقة؟

فالسؤال الفلسفي ليس سؤالا مضايفا للوجود الإنساني، حتى تتساءل، ما الذي تضيفه الفلسفة للإنسان؟ بل هو سؤال عن وجود الإنسان في أصالته التي تمتد إلى عوالم سحيقة تدفعه إلى التأمل والتفكير العميق بدل الوقوف عند حدود التجربة المباشرة والمعطيات النظرية للعلم، فالعالم من منظور فلسفي ليس مجموعة ظواهر تربط بينها علاقات تترتب عليها قونين، إنه حركة ناتجة عن فعل يتضمن بداخله معنى، وهذا المعنى الذي كان فهمه بسيطا أصبح اليوم محل شك وتأويل أي أنه أصبح معنى مركبا تتحكم فيه عوامل ذاتية وموضوعية مختلفة في واقع إنساني منفتح على كل الشكوك والاحتمالات "فالزواج، وتربية الأطفال والوفاء، والعلاقة مع المال والجسد، والتساؤلات التي يثيرها تطور العلوم والتقنيات، كل هذا لم تعد تحكمه قواعد، واضحة صريحة، والحقيقة أنه كلما طرحت هذه المسائل، صعب علينا الجواب عليها بكيفية جماعية لأننا لا نتوفر قبليا على أي مقياس مسبق للوجود، ومن جراء ذلك، فإنه كلما تلاشت هذه المقاييس في ذات الحين الذي يتلاشى فيه عالم التقليد واللاهوت الأخلاقي، كانت عديدة هي جوانب الحياة التي تدخل في حقل التساؤل الفردي[2].

التساؤل الفردي هو انعكاس لتحول عميق في المجتمع الحديث الذي لم تعد الروابط الاجتماعية التقليدية تشكل فيه عاملا قويا لربط أجزاء الجسم الاجتماعي ببعضها البعض من الأسرة إلى المدرسة ومكان العمل، فعن السؤال "ماذا ينبغي لي أن أفعل؟" ما عاد الله يجيب، أو غدت إجاباته أقل نفاذا للسمع إجتماعيا، غير أن السؤال كسؤال، يبقى إلى اليوم مطروحا... بحيث أن كل واحد منا يواجه هذا السؤال، ماذا ينبغي لي أن أفعل؟ بوصفه السؤال الشخصي الأكثر حميمية الذي لا يستطيع أحد أن يجيب عنه بالنيابة، ما يكسبه، إذ ذاك، المزيد فالمزيد من الأهمية، سذج هم أولئك الذين

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة:2019 Issn: 2335- 1470

يعتقدون أن الإلحاد يلغي مسألة الأخلاق، بل العكس هو الصحيح: ذلك أن حاجاتنا إلى الأخلاق تزداد كلما قل تمسكنا بالدين، إذ تقع على عاتقنا الإجابة عن السؤال "ماذا ينبغي لي أن أفعل؟ عندما يكف الله عن الإجابة عنه؟"[3].

-العقلانية الحديثة وفكرة رفع السحر عن العالم:

من يرى أن رفع السحر عن العالم يؤدي إلى زوال الذاتية باعتبارها من بقايا التقاليد اللاهوتية، ينسى أن انسحاب اللاهوت يؤدي إلى ترك فراغ كبير يجعل الذات وجها لوجه أمام مصيرها، إذ أنها تتحمل مسؤوليتها أمام ذاتها وأمام الغير، في ظل وضع كهذا يصعب فهمها لذاتها فهما وظيفيا عضويا، باعتبارها امتدادا للطبيعة في بعدها المادي والحيوي.

إن العلمنة التي أصبحت واقعا في حياتنا، جعلت الإنسان يدرك عمق التناقضات التي تحيط به، في مجتمع بقدر ما يبدوا في غنى عن كل سؤال ما هوي باعتباره تحرر من هاجس الخوف من المصير إلا أنه يراه غارقا في مشكلات أخلاقية عميقة تتعلق بمعنى الحياة ومعنى الوجود الإنساني والشعور بهشاشته، كما تتعلق بالغاية من فعل الخير وتجنب الشر والدفاع عن الحق والوقوف ضد الظلم؟ هذا ما يسميه "سبونفيل A.sponville" "الموت الاجتماعي لله، والذي يحيل كل واحد منا إلى السؤال "ماذا ينبغي لي أن أفعل؟" بوصفه سؤاله الخاص"[4].

العلم ليس بحثا أو سؤالا فيما ينبغي؟ إنه اشتغالا على ما هو كائن ووجود متحقق شاخص للعيان وليس محل سؤال، حتى وإن كان مجردا فوجوده مؤكد وإلا لا معنى لتفسيره وتحليله وفهمه، لكن سؤال الماينبغي يطرح سؤال، وماذا بعد؟ وفي النهاية؟ وهو سؤال يرى فيه العلم الوضعي بمناهجه التجريبية وحدوده الدقيقة سؤالا لا يعنيه حتى وإن كان له معنى؟.

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة:2019 Issn: 2335- 1470

- **فكرة موت الفلسفة، أي معنى:**

وهنا نتساءل، هل معنى هذا أن الفلسفة لم يعد لها ما تقوم به، وليس لها أي دور تؤديه في ظل هيمنة العلم على ثقافة المجتمعات المعاصرة؟ يجيب فوكو عن السؤال في سياق حديثه عن موت الفلسفة بالقول "إن الفلسفة تمثل مجهود الإنسان المجمع من أجل استعادة معنى التجميع. ولا يمكن لأي علم تعويضها، وذلك لأن كل علم ينصب على ميدان من ميادين الإنسان، سبق تقطيعه، منهج العلوم تحليل في حين أن منهج الفلسفة لا يمكن إلا أن يكون جدليا، وإن الفلسفة من حيث هي تساءل حول الممارسة (البراكسيس) هي بذات الوقت تساءل حول الإنسان أي حول الذات الجامعة للتاريخ، ولا يهم أن تكون هذه الذات قد حادت عن مركزها أو لم تحد"[5].

يرى فوكو أن الفلسفة باعتبارها تجميعا للأجزاء في إطار الكل، لا يستطيع العلم إزاحتها ولا تعويضها، فإذا كان العلم يتجه إلى التجزيء فإن الفلسفة تظل تسعى إلى إيجاد الكل الذي يجمع الأجزاء، وهي تستند في ذلك إلى منهجها الجدلي التركيبي الذي لا ينظر إلى الجزء إلا في إطار الكل وهذا يتعارض مع النزعة الوضعية التي تعمل على تجاوز المنهج الجدلي والمنحى التركيبي والروح النقدية ومحاولة استبدال كل ذلك بالروح العلمية التي تعمل على وصف الإنسان كما هو في وضعياته المختلفة، أو تنظر إليه على أنه موجود في الوضعية التي هو عليها، بعيدا عن موقفه هو من هذه الوضعية، وهذا ما يعطل ملكة الفهم ويلغي عملية التفكير لدى الذات الفاعلة في الوضعية التي توجد عليها، فالفرد تابع للمجتمع تبعية مطلقة حسب دوركايم وهو لا يمثل إلا دورا وظيفيا فرضه عليه المجتمع ويسير الوظيفيون كلهم في هذا الاتجاه، كما أنه تابع للطبقة التي يوجد فيها حسب ماركس وهو محكوم بالصراع الذي يوجد داخل المجتمع، ويختلط في المنظور الماركسي البعد الوضعي مع المنهج الجدلي النقدي، لكن الماركسية تتحول من فلسفة نقدية إلى إيدولوجية وضعية فتنشأ محاولات عديدة تعمل من أجل استعادة الروح النقدية والفلسفية لها على غرار ما قام به جورج لوكاتشن (1885- 1971) وأنطونيو غرامشي وفلاسفة

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة:2019 Issn: 2335- 1470

مدرسة فرانكفورت الذين أعادوا للماركسية جوانبها النقدية، وذلك أن هؤلاء أدركوا أن الماركسية ليست نظاما قارا جامدا، بل هي رؤية فلسفية نقدية عميقة للإنسان ككائن تاريخي متحول ومتنقل من وضع إلى وضع، لذلك يقول فوكو "لقد رفض الماركسيون لمدة طويلة إدماج المعارف الجديدة حول الإنسان، ومن هنا أفقرت الماركسية، إن المسألة المطروحة اليوم، هي مسألة معرفة ما إذا كنا نرغب في إعادة الحياة إليها، عبر توسيعها وتعميقها، أم أننا نفضل تركها تموت، أن يتخلى المرء عن الماركسية معناه التخلي عن فهم الانتقال، والحال أنني أظن أننا دائما في حالة انتقال، ودائما في حالة تفكيك عبر الإنتاج وفي حالة إنتاج عبر التفكيك، وبأن الإنسان منقطع بشكل دائم عن البنيات التي تشرطه، وذلك لأنه مختلف عما يجعل منه ما هو وبالتالي لست أفهم هذا التوقف عند البنيات: فهذه فضيحة منطقية بالنسبة لي"[6].

-الإنسان بين تاريخيته وبنيويته:

حصر الإنسان في وضعية جامدة وبيئة ثابتة باسم المعرفة العلمية هذا ما يشير إليه فوكو، فالإنسان ينتج ذاته باستمرار ولا يمكن وضعه في بنية ثابتة ومجردة، بداعي الروح العلمية والموضوعية، وهذا ما يؤدي إلى إلغاء بعد هام من أبعاد الحياة الإنسانية وهو بعد الاختلاف وبعد التاريخ، فحقيقة الإنسان لا تنحصر في مبدأ الهوية والمطابقة، بل تتجه وتميل إلى الاختلاف والتجاوز عبر جدلية الإنتاج والتفكيك التي يمارسها الإنسان على ذاته التي تمارس ذاتها في التاريخ، يقول إريك فروم "ومن تعاليم ماركس، أن الترف لا يقل رذيلة عن الفقر، وأن الهدف من الحياة هو مزيد من تحقيق كينونتنا وليس الاستزادة من ملكتنا"[7].

يعني هذا أن محاولة فهم ودراسة الإنسان خارج إطار الرغبة في التحرر وتحقيق الذات، يجعلنا نخضع الحياة الإنسانية إلى عقلانيات مجردة تفرغ الإنسان من كينونته أو من ذاتيته، هذه الذاتية التي تقوم

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة:2019 Issn: 2335- 1470

على ميزتين أساسيتين هما أنه: "أصبح للفردية الحق في التعبير عن مطامحها، ولها الحق في أن لا تتأسس كلية في الجماعة، وأن لا تخضع إلى السلطة من دون تفكير.

الحق في النقد، إنه مبدأ العالم الحديث، وأن لا يقبل أحد بشيء إلا ما يبدو له أنه مسوغ ومؤسس"[8].

-المعرفة الإنسانية والعلوم الحديثة:

الفردانية والنقد أساسات للحداثة باعتبارها مشروعا للإنسان ككينونة وذاتية، يترتب عنهما إنتاج الذات والحفاظ على الاستقلالية الفكرية المرتبطة بحرية النقد، هذا النقد هو الذي كان وراء ظهور الإنسان كمجال دراسة علمية في الفترة الحديثة، فالعلوم الإنسانية في مظهر التقدم العلمي الذي عرفه العلم الحديث وبذلك تمكنت هذه العلوم من الاتصال بسائر أشكال المعرفة والعمل وفق نماذج رياضية وبيولوجية واقتصادية ولغوية أو فلسفية، من هذا الموقع والوضعية الابستيمية، يصعب تحديد العلوم الإنسانية وتحديد موضعها وهو ما يفسر عدم ثباتها وعدم دقتها، واستنادها بشكل غير محدد إلى مجالات معرفيه مختلفة، وكذلك طابعها الثانوي دوما والمشتق بالرغم من ادعائها الشمولية، إن هذه الملامح هي التي أدت إلى تعقيد التشكيل الإبستمولوجي الذي تقع داخله"[9].

نفهم من هذا التحليل أن العلوم الإنسانية لم تظهر أو تنشأ على أرضيتها الخاصة، بل نشأت كخطاب حول الإنسان انطلاقا من أرضية العلوم الأخرى، فاتجاهات هذه العلوم منبثقة عن صلتها بالعلوم الأخرى التي جعلتها نموذجا لها باعتبارها علوما تجريبية، هذه العلاقة مع معارف المجالات العلمية الأخرى تجعلها في وضع هش وأكثر تعقيدا من بقية العلوم وأقل دقة وتحديدا منها، إن لم نقل أقل علمية منها، من هنا يرى فوكو متبعا منهجه الأركيولوجي أنه، "لاجدوى من القول إنها -العلوم الإنسانية-، علوم خاطئة، بل هي ليست علوما على الإطلاق، فالتشكيلات التي تحدد وضعيتها وتجذرها في الإبستيمية الحديثة تمنعها من أن تكون علوما...لقد كونت الثقافة الغربية تحت اسم الإنسان،

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة:2019 Issn: 2335- 1470

كائنا يجب عليه أن يكون لجملة أسباب مترابطة، ميدانا وضعيا للمعرفة، ومن دون أن يكون بمقدوره أن يكون موضوع علم"[1].

هذا ما يجعلنا نفهم لماذا يربط فوكو بين المعرفة والسلطة، فهذه الخطابات أو التشكيلات الخطابية هي أنظمة سلطوية تمارس سلطتها على الإنسان تحت شرعية أو غطاء المعرفة العلمية، هذا الكشف والتعرية تجعل فوكو يقف موقفا جذريا من هاته العلوم من منظور نيتشوي يقترب من إرادة القوة في ثوب إرادة المعرفة، ولا ننسى أن فكرة الربط بين المعرفة العلمية والقوة تعود جذورها إلى فرانسيس بيكون (1561- 1626) فهي تقع في صميم مشروع الحداثة، لكن الذي يثير إشكالا هنا هو في الحقيقة التحول من سيطرت الإنسان على الطبيعة إلى سيطرت الطبيعة على الإنسان فيتحول إلى أداة بيدها ينفذ ويخضع لحتمياتها، مع إلغاء عنصر المقاومة والمواجهة في ظل سعي كلي لإلغاء الذات من مجال المعرفة، بكل ما تعنيه هذه الذات من فكر وشك وسؤال ونقد للصورة التي تؤطرها أو التشكيلة الخطابية التي تخضع لها، يعبر فوكو عن هذا التوظيف للمعرفة في قمع وقهر الإنسان كذات فاعلة وتحويله إلى موضوع لممارسة السلطة عندما يرى في العقلانية الوضعية التي قامت عليها العلوم الإنسانية مصدرا للألم والعبودية إذ يرى أن هذه العقلانية تقوم في الواقع على مبدأ النفي (الجنون باعتباره (عقلا) بل وتنتج باسم العقل الاقتصاد والحبس والواقع أن المجنون أصبح في النصف الثاني من القرن 17 م يفصل عن باقي المهمشين ويحبس في مكان خاص: مستشفى المجانين. وهناك يخضع للقمع الجسدي والمعنوي وللقصاعة، إنه محبوس فيما حدد كمرض وفر الأسس لخطاب جديد هو الخطاب النفساني (التحليل النفسي)، من حينها لم يعد المجتمع يسمع صوت المجنون قط"[10].

الحبس والإقصاء والعزل كلها ممارسات مرتبطة بخطابات نظرية تظفي عليها شكلا من المشروعية والمعقولية، فتصبح عادية ومسموح بها على أساس أنها عقلانية ومنطقية، فتتحول المعرفة إلى سلطة عندما تصبح معرفة معيارية، تحدد من خلالها معايير الخطأ والصواب، المعقول واللامعقول، المقبول

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة:2019 Issn: 2335- 1470

والمرفوض، والتحليل النفسي خير مثال على ذلك، في هذا السياق الذي ترتبط فيه المعرفة العلمية بالتصورات العقلية ضمن عقلانية وضعيته، يمكننا أن نتساءل مثلما يتساءل (سبونفيل A.sponville) "مثلا، أي حدود للعلوم التقنية، كما تسمى اليوم، وخاصة علوم الكائنات الحية؟ أي حدود للبيولوجيا؟ وفي معنى أدق، أي حدود لعمليات التعديل الوراثي على الخلايا الجنينية، تلك التي تنقل السمات الوراثية للبشرية؟ أو أي حدود للاستنساخ المطبق على الجنس البشري (بما فيها الحد المطلق: لا حاسمة)؟ البيولوجيا لا تجيب عن هذه الأسئلة، وهل ذلك لأنها لم تبلغ من التقدم ما يتيح لها أن تجيب عنها في غضون عشر سوات أو عشرين سنة؟ لا. إنها لا تجيب ولن تجيب يوما عنها، لأن هذا السؤال ليس سؤالها، جل ما تستطيعه البيولوجيا، بما هي علم، هو أن تتنبأ بما هو ممكن، تقنيا"[11].

مثال البيولوجيا هو مثال لكل علم له رؤية استاتيكية تقنية للمعارف التي ينتجها، فتتحول تلك المعارف إلى حدود يقف عندها اهتمامه، وعلى ضوئها يتحدد ما هو ممكن وما هو غير ممكن، فهي ليست محل تفكير ولكنها معيار يقاس عليه كل تفكير، عندما تتخذ العلوم الإنسانية من العلم الوضعي نموذجا لها يموت الإنسان من حيث هو ذات فاعلة ومنتجة ليصبح مفعولا به، مستهلكا، وذلك أن العلم بطبيعته في صراع مع السرديات"[12] كما يقول فرانسوا ليوتار (1924- 1998) لذلك يرفض أن يتجاوز حدود الممكن كما أقر هو قواعده وقوانينه.

- **نقد الوضعية وعودة الروح الفلسفية:**

ونظرا لمحدودية هذا الأفق مقارنة بسعة الأفق الإنساني فقد عادت الفلسفة لتساهم مثل ما فعل ليو ستراوس " leo straus " في استيقاظ فلسفة سياسية في جدل مفتوح مع هيمنة علوم الإنسان... وتعود الحيوية الحالية للفلسفة أساسا إلى الصدقية المستعادة للإجراء النقدي الذي يرفض التشيع للوضعية ولأي إضفاء للصبغة العلمية على ما هو اجتماعي أو سياسي، لقد انقضى عهد صورة الفيلسوف الذي تجاوزه زمنه لأن قطار علم الاجتماع أو الرياضيات الاجتماعية قد فاته، ستترك عبادة

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة:2019 Issn: 2335- 1470

الظاهرة اعتبارا من الآن مكانها للتساؤل حول القيم، يجرى الحذر الآن من التجريدات العميقة وفي ذات الوقت يحتفظ للنشاط المفاهيمي بدور أساسي[13].

لابد للعلوم الإنسانية أن تدرك أن صلتها بالفلسفة أقوى وأرسخ من صلتها بالعلم، فإبقاء الصلة مع الحس الفلسفي النقدي يجعل هذه العلوم أنجع وأكثر قدرة على تفسير الوجود الإنساني في أبعاده المختلفة والمركبة التي لا يمكن حصرها في قوانين ثابتة وقواعد مجردة، لكن على الفلسفة أن تعي حجم التغيرات التي عرفتها الكينونة في عالم أصبح فيه للتطورات العلمية دورا مهما في التأثير على هذه الكينونة، فالعلم حتى في صورته التقنية لم يعد مجرد تماما من التأثير على إنتاجنا لذواتنا وإعادة تفكيكها، على العلوم الإنسانية أن تتخلص من قداسة المناهج والنظرية الوضعية كما على الفلسفة أن تتحرر من مركزية الميتافيزيقا، ذلك أننا في حاجة إلى معرفة تتقاطع فيها الابستمولوجيا مع الأنطولوجيا حتى تتجاوز الميتافيزيقا والوضعية الأرثوذوكسية معا، كعائقين لدراسة تاريخنا بكل ما ينطوي عليه من ممكنات فلولا هذا الانفتاح لما تم اكتشاف الوجه الجديد للأسطورة على يد ليفي ستروس إذ بعدما كانت "مجالا هلاميا غفلا لا دلالة له إلا أنه وجد فيها نظاما سببيا خاصا يحركه منطق الرمزية اللاشعورية بوضوح وعلمية لا يقلان إطلاقا عن وضوح المنطق العلمي وصرامته المنهجية... فهي ليست مجرد حكايات وهمية جميلة يعاد سردها على سبيل التسلية والترف بل هي محاولات حاسمة لحل التناقضات الأساسية التي تطبع الوجود الإنساني...تناقض بين الحياة والموت، بين الذات والآخر، بين الثقافة والطبيعة، بين الزمن والسرمدية...الخ.[14]

هذا الإنفتاح على الثقافات المختلفة جعل المفاهيم في حقل العلوم الإنسانية تعيد النظر في النظريات الكبرى التي تؤطرها والتي يغلب عليها الطابع الوضعي الإمبريقي، ولنا في المدرسة النقدية التي أسسها فلاسفة فرانكفورت مثالا بارزا على يد مؤسسيها، إذ شكل " كتاب النظرية التقليدية والنظرية النقدية لهوركهايمر النص الموجه لهذه المدرسة، حيث بين موقفها النقدي المتميز بالشك الكلي في معايير الحياة

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة:2019 Issn: 2335- 1470

الإجتماعية كما هي مقدمة ومنظمة لحياة الفرد، مؤكدا على دور العلاقة بين النظرية والممارسة، داعيا إلى الطرح البيني وضرورة التأسيس للفلسفة الإجتماعية، منتقدا بشدة التخصص الزائد والطرح الإمبريقي، ومدافعا عن مشروعية البحث الفلسفي في علاقته بالبحوث الإجتماعية والإنسانية"[15].

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة:2019 Issn: 2335- 1470

خلاصة:

إن ما تقدمه الفلسفة من نقد للمعرفة في صيغها المختلفة سيظل قادرا على مواكبة التطورات العلمية والتقنية، فالفلسفة هي عودة إلى الذات لبعثها من جديد، وتجديد صلتها بالعالم في تحولاته، لذلك فهي اختراق لجميع القوانين والوضعيات، إذ هي تعبير عن الوجود الإنساني في ذروته القصوى، تساءله وتذهب به في جميع الإتجاهات، دون أن تحيطه بأي اعتبارات تمنعه من اكتشاف وجوهه المتعددة والمتناقضة التي تجعله صعب الإمتلاك والإنقياد لتنبؤاتنا وهو الأمر الذي تخاف الوضعية بلوغه فلا تعطيه اعتبارا باسم الحفاظ على الطابع العلمي والموضوعي للمعرفة.

الهوامش:

[1] جان فرانسو دورتي وآخرون، فلسفات عصرنا، ترجمة إبراهيم صحراوي، الدار العربية للعلوم ومنشورات الاختلاف، بيروت، الجزائر، ط1، 2009، ص 40.

[2] لوك فيري، الإنسان المؤله أو معنى الحياة، ترجمة محمد هشام، إفريقيا الشرق، المغرب، لبنان، ط1، 2002م، ص 27.

[3] أندري كومت سبونفيل، هل الرأسمالية أخلاقية؟ ترجمة بسام حجار، دار الشافي، بيروت، ط1، 2005م، ص 38.

[4] المرجع نفسه، ص 39.

[5] ميشال فوكو، هم الحقيقة، ترجمة مصطفى المسناوي وآخرون، سلسلة بيت الحكمة، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2006، ص 25.

[6] المرجع نفسه، ص 26.

[7] إريك فروم، الإنسان بين الجوهر والمظهر، ترجمة سعد زهران، عالم المعرفة، العدد 140. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، 1989م، ص 35.

[8] الزواوي بغورة، ما بعد الحداثة والتنوير، موقف الأنطولوجيا التاريخية، دراسة نقدية، دار الطليعة، لبنان، ط1، 2009، ص 50.

المجلد : 06 / العدد : 01 / الشهر: يناير السنة:2019 Issn: 2335- 1470

[9] المرجع نفسه، ص 184.

[10] المرجع نفسه، ص 185.

[11] جان فرانسو دورتي، فلسفات عصرنا، مرجع سابق، ص 140.

[12] أندري كومت سبونفيل، هل الرأسمالية أخلاقية، مرجع سابق، ص 45.

[13] Jean Français lyotard, LA condition postmoderne, edition cérés, Tunis, 1994, p5.

[14] جان فرانسوا دورتي، مرجع سابق، ص 122.

[15] عمر مهيبل، إشكالية التواصل في الفلسفة الغربية المعاصرة، الدار العربية للعلوم، منشورات الاختلاف، المركز الثقافي العربي، الجزائر، بيروت، ط1، 2005، ص ص 220- 221.